

فالح عبد الجبار
العمامة والأفندي:
سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني

ترجمة أمجد حسين
(بيروت؛ بغداد: منشورات الجمل، ٢٠١٠). ٥٩٠ ص.

السيد يسين(*)

أستاذ علم الاجتماع السياسي،
ومستشار مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة.

متعمّق ينتهي بنقد أيديولوجي بصير.

- ١ -

وهذا الكتاب يذكّرنا بالعمل الموسوعي الرائد لحنا بطاطو الذي حكى لنا، وفق بحث تاريخي نقدي عميق، قصة صعود وسقوط الطبقات الاجتماعية في العراق، سجله في كتابه المعروف **الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق**، المنشور عام ١٩٧٨، الذي كان مدخلاً ممتازاً للعديد من المثقفين والقراء العرب لفهم اللوحة المعقّدة للعراق، الزاخرة بالجماعات الإثنية، والنزاعات المذهبية، والصراعات السياسية.

والكتاب ينقسم إلى مقدمة مهمة وخمسة أجزاء: الجزء الأول عنوانه: «الدولة، الأمة، النزعة الإسلامية»؛ والجزء الثاني يتناول النشوء والطفرة؛ والجزء الثالث الفضاءات الثقافية: المرجعية والطقوس الشعبية؛ والجزء الرابع التصادم

يكاد هذا الكتاب الموسوعي عن العراق يستعصي على العرض والتحليل، وذلك للاتساع الشديد في ميدان بحثه، الذي يتعلق أساساً بالعلاقة بين المقدس والدنيوي في مناشئ حركات الاحتجاج الدينية في العراق، بالإضافة إلى الغزارة في سرد مفردات التطور للحركة الشيعية في العراق منذ نشأتها حتى الوقت الراهن.

والمؤلف المعروف بأبحاثه المتعمّقة يستعين في بحثه الموسوعي بمناهج متعدّدة سائدة في العلم الاجتماعي المعاصر. وهو يطبق المنهج التاريخي بشكل إبداعي بحيث لا تغيب الصورة الكلية وراء آلاف التفاصيل الجزئية، بالإضافة إلى قيامه بتحليل الخطاب الشيعي، وتركيزه على دراسة حالات مماثلة في ضوء تحليل ثقافي

دقيقة بالتفاصيل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهذا ما قام به المؤلف بالفعل.

وهو في مقدمته المهمة يحذر من فهم مصطلحي «الشيوعي» و«النزعة الشيعية»، بصفتها مقلتين سوسيولوجيتين أو سياسيتين. وعلى ذلك، فاستخدام هذين المصطلحين «للدلالة على كتلة اجتماعية صوانية بلا تمايز متشعبة بوحدة الهدف، وتوجه سياسي أحادي، إنما هو قوالب ساذجة أنتجت وسائل إعلام جاهلة».

يريد المؤلف أن يقول إن الشيعة والنزعة الشيعية لا يمكن اختزالها في جملة واحدة، وكأنها ظاهرة وحيدة البعد. ويستعرض المؤلف في الفصل الأول ثلاث مقاربات متميزة في الأدبيات المتعلقة بالمذهب الشيعي، والحركة الإسلامية الشيعية، في العراق، وهي المقاربة الطائفية، والمقاربة الجوهرية - الثقافية، والمقاربة البنوية الظرفية. ويقوم النموذج الطائفي حول ثنائية الطائفة مقابل المجتمع. بعبارة أخرى، يشير هذا النموذج في حالة العراق إلى أن هناك دولة تسيطر عليها أقلية سنية مقابل جماعة مضطهدة هي الأغلبية الشيعية. وفي ضوء هذا التوصيف، فإنه ينظر إلى النضال الإسلامي في صفوف الشيعة، باعتبار أنه تعبير عن المظالم التي تنشأ نتيجة للعلاقة المتوترة بين الأقلية السنية الحاكمة والأغلبية الشيعية المحكومة.

غير أنه يعيب تطبيق هذه المقاربة الميل إلى اعتبار المذهب الشيعي وكأن له تفسيراً واحداً، ومجتمع الشيعة باعتباره وحدة متماسكة لا تنوع فيها، والحركات الإسلامية الشيعية وكأنها تعبر عن

في عهد البعث؛ أما الجزء الخامس والأخير فيتناول الأيديولوجيا: النظريات الاجتماعية - السياسة والنظريات الاقتصادية؛ وينتهي باستنتاجات، ويتضمن فهرساً للأعلام والأماكن، وقائمة بالمراجع.

والواقع أن فالح عبد الجبار استطاع - بناء على تكوين نظري متميز - أن يطبق بصورة مبدعة نظريات ومناهج علم الاجتماع الديني وعلم الاجتماع السياسي، بالإضافة إلى قيامه بالتحليل الأيديولوجي المتعمق لرؤى العالم الكامنة في الخطاب الشيعي المتعدد الصور والأنماط.

ومما يدل على صعوبة المهمة التي تصدى لها المؤلف، بتوفيق ملحوظ، العبارات التي افتتح بها سامي زبيدة، أستاذ علم الاجتماع في جامعة لندن، تقديمه للكتاب، حين قرر أن «الفضاء الشيعي في العراق مركب، ومتعدد الأبعاد، فهو جماعة دينية، وتخوم اجتماعية، وتشكيلات سياسية، وينبوع أفكار ومعرفة. هذا الفضاء غير متجانس اجتماعياً، فهو يضم الطبقات الإكليريكية في العتبات المقدسة، وبرجوازية المدن، والمثقفين الحديثين، والفلاحين القبليين، وشيوخ العشائر، وأن السياسة في هذا الفضاء لا تنحصر في عصبوية طائفية موحدة، بل تنطوي على مركب متنوع من المصالح والأيديولوجيات والحركات التي تتجاوز التخوم الطائفي في أغلب الأحيان».

وهذا الوصف المركز للفضاء الشيعي بكل أبعاده، يقتضي لمن يسعى إلى بحثه أن يؤلف تأليفاً خلاقاً بين العديد من المناهج السائدة في العلم الاجتماعي، حتى يستطيع أن يرسم لوحة متكاملة مؤسسة على معرفة

بالتحليل النظري، وإنما حرص على أن يعتمد أيضاً على الدراسة الميدانية.

ولعل السؤال الذي ينبغي أن نثيره في ختام هذا العرض الوجيز للكتاب المتميز لفالح عبد الجبار هو: ما هي الاستنتاجات الرئيسية التي توصل إليها المؤلف بعد هذه الجولة الطويلة من البحث والتعمق في مختلف أبعاد الفضاء الشيعي؟

لقد ساعدنا المؤلف نفسه في نهاية الكتاب بإيجاز أهم النتائج التي خلص إليها، وهو ينطلق من مسلمة أساسية مبناها «أن الحركة الإسلامية الشيعية في العراق كانت، ولا تزال، وستبقى ظاهرة فريدة». وهو يميز بين ثلاث مراحل مرت بها الحركة الإسلامية الشيعية. فقد نشأت باعتبارها حركة أصولية تسعى إلى قيام إسلام كلي جامع في وجه أيديولوجيات علمانية غربية، غير أنها تحت تأثير نظام حكم الأخوين عارف السلطوي العسكري، غيّرت الحركة مسارها باتجاه اتباع سياسة محلية قائمة على الاحتجاج ضد التمييز الممارس ضد طائفة الشيعة، ومعنى ذلك أنها تحولت إلى الخصوصية المذهبية.

أما المرحلة الثالثة، فتتمثل بالتحول إلى الراديكالية، وظهرت خلال الحكم الشمولي العلماني للبعث تحت تأثير الثورة الإيرانية، التي كانت تمثل صعود النزعة الإسلامية الشعبوية.

- ٣ -

ويختتم المؤلف كتابه برصد مجموعة متكاملة من نقاط الضعف المتأصلة في الحركات الإسلامية الشيعية التي ظهرت في كل مراحل التطور التي مرت بها.

توجهات متشابهة، مما يؤدي إلى إنتاج صورة غير واقعية لكل من المذهب والمجتمع والحركات الشيعية.

ومن ناحية أخرى، فالمقاربة الجوهرية - الثقافية التي طبقت على وجه الخصوص بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩، كانت محاولة لتفسير النضال الإسلامي عموماً، أو الإسلام الشيعي خصوصاً، وصعود النزعة الإسلامية، وردّها إلى جمود الإسلام، مما أدى إلى تنافر بينه وبين الحداثة.

ويحاول بعض الباحثين - بناء على أدلة متنوعة - القطع بأن الإسلام السياسي الشيعي هو جزء من الصعود العام للإسلام السياسي في الشرق الأوسط.

- ٢ -

ونصل أخيراً إلى المقاربة البنائية - الظرفية التي تركّز على تحليل بنية المجتمع، وتهتم اهتماماً خاصاً بدراسة ممثلي النزعة الإسلامية، أو بعبارة أخرى الذين يرفعون لواءها، وهم ثلاث فئات، هي: طبقة رجال الدين، والطبقة التجارية في النجف، ومتقفو الطبقة الوسطى الحديثة.

ويُلفت النظر إلى أن المؤلف اهتم ببيان أهم المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها في بحثه، وهي صحافة الأحزاب السياسية، والأدبيات الإسلامية، والأعمال النظرية للقادة الروحيين أو الفعليين، وأخيراً المقابلات والحوارات التي أجراها مع ما يقرب من ٤٠ قيادياً وكادراً متقدماً ووزراء سابقين وسياسيين عاملين ونشطاء ومتقنين.

بعبارة أخرى، لم يقتنع المؤلف

إلى خلق أيديولوجيات، والنجفيين من أبناء الطبقة الوسطى الذين نزعوا إلى الفعل والعمل والتنظيم.

٦ - كان هناك توتر يشوب تحالف الطبقة الوسطى الحديثة من الدنيويين ورجال الدين الكبار.

٧ - حين تطورت هذه الحركات ونضجت، باعتبارها حركات اجتماعية حديثة لها برامج عمل واضحة، في مطلع عام ١٩٨٠، انقطعت عن موطنها الأصلي، ودفعت إلى المنافي، وسرعان ما اندمجت إلى حد كبير في المجهود الحربي الإيراني.

٨ - ظهرت في النجف - في ظلّ العقوبات المفروضة على العراق - مراكز جديدة لقوة رجال الدين تتمكّ شبكات مكتملة من رجال الدين والعامّة، وأدى ذلك إلى تقسيم النفوذ أسرياً وقطاعياً.

٩ - أدى ذلك إلى تسييس الهوية المذهبية وفق خطوط أيديولوجية وغير أيديولوجية متفرقة.

هكذا صاغ أ. فالح عبد الجبار استنتاجاته المهمة التي خلص إليها في خاتمة كتابه الموسوعي، الذي يمثل إضافة حقيقية إلى المكتبة العربية في مجال فهم العراق المعاصر □

وأهم هذه النقاط هي:

١ - لم يكن باستطاعة الحركة الإسلامية أن تعتمد بأية وسيلة مهمة على طبقة رجال الدين التي كانت ضعيفة في إعداد أفرادها، وضعيفة في شبكاتها، وضعيفة في قدرتها المالية، بالإضافة إلى انقسام هذه الطبقة، تبعاً للتوجّهات الفكرية المختلفة، إلى إصلاحيين وتقليديين.

٢ - كانت الشعائر الدينية، باعتبارها فضاءات ثقافية للهوية المذهبية وأدوات ممكنة للتعبئة والتحريض الجماهيري، شعائر متفرقة ومتشظية.

٣ - حاول حزب «الدعوة» أن يعمل بصفته جسراً يربط ما بين مؤسسة «المرجع» وفضاءات الشعائر، ولكنه لم يستطع السيطرة عليهما.

٤ - من سمات الحركات الإسلامية، غياب هوية ذات أساس قوي، لتعدد أساليب الحياة للطبقات الاجتماعية المختلفة (رجال الدين، وكبار ملاك الأرض من الشيوخ، والسياسيين، والطبقة الوسطى والعاملة، والفلاحين).

٥ - المبادرة إلى إنشاء الحركة الإسلامية في أواخر خمسينيات القرن العشرين، جاءت على يد مجموعتين، هما: الجيل الأصغر من رجال الدين الذي اتجه